علم الترجمة: ماهيته وأسباب ظهوره

حسينة لحلو

جامعة الجزائر 2

Résumé :

La notion « traductologie » en tant qu'une science indépendante et reconnue dans le champ des sciences humaines est relativement récente, bien que ses concepts clés tels que traduisibilité et fidélité aient existé depuis l'existence de la discipline de la traduction.

Le présent article puise dans les racines de la traductologie, ses raisons d'êtres et les différentes questions qu'elle traite.

Mots clé : traduction, traductologie, équivalence, traduisibilité.

الملخص:

إن مصطلح "علم الترجمة" بصفته علما قائما بذاته ومعترفا به في حقل العلوم الإنسانية حديث العهد، رغم أن المسائل والمبادئ التي بني عليها موجودة منذ وجود الترجمة.

يعود هذا المقال جذور علم الترجمة وأسباب ظهوره والمسائل التي يتناولها حتى قبل أن يتبلور إلى علم مستقل يهتم بالترجمة منذ بداية الخمسينات من القرن الماضي.

الكلمات الرئيسية: ترجمة، علم الترجمة، التكافؤ، قابلية الترجمة.

معروف أن نشوء علم من العلوم و بروزه إلى ساحة الدراسة لا يكون إلا عن ضرورة يمليها وجود ظاهرة طبيعية أو نشاط بشري له أسبابه ومظاهره وغاياته، وتلك هي حال علم الترجمة الذي أفرزته ظروف تاريخية وعملية صنعتها ظاهرة الترجمة المعروفة لدى الناس منذ أن كانت ألسنتهم مختلفة ورؤيتهم للحقائق كذلك، مع أن عناصر الفكر البشرية تظل واحدة، وذلك ما سمح بمقبوليتها نظريا ووجوبها عمليا بعد أن توسعت دائرة التواصل بين الجماعات. تواصل كان ليتحدد - لولاها - بحدود الإيماء والإشارة.

ما هو علم الترجمة؟

علم الترجمة هو المقابل الصريح للمصطلح الفرنسي traductologie التي تعني حرفيا "logos" أي علم، و"traducto" أي الترجمة، أما في اللغة الإنجليزية فهو يدعى "translation studies" وهو العلم الذي يهتم بالتنظير للممارسات التطبيقية للترجمة من جهة وتطبيق النظريات الترجمية المتوفرة في مجال تكوين المترجمين و تطوير أدوات تعليم الترجمة ونقد الترجمات من جهة أخرى.

من المنظرين من وضع علم الترجمة في خانة العلوم الطبيعية معتبرا موضوع الدراسة، أي الترجمة، نشاطا عصبيا، حيث يتركز البحث غلى العامل البشري وهو المترجم، وهناك من يعتبرها فرعا من فروع العلوم الإنسانية، وبالتحديد علم اللسان، كونه علما يدرس الظواهر والمبادئ التي لا تنم عن موضوع الترجمة بصفتها نتاجا فحسب بل والمتعلقة بالمعطيات النفسية والتاريخية والسياقات الاجتماعية والسياسية التي تحكم عملية الترجمة، حيث نجد علم الترجمة النفسي وعلم الترجمة الاجتماعي...الخ.

مهما تعددت التصنيفات، فإن علم الترجمة ونظرا لتشعب موضوعه في مجالات متعددة، يظل علما متعدد المجالات، في حاجة دائمة إلى العلوم الأخرى من أجل استخلاص النتائج وتثبيت المبادئ من خلال تفسير

الظواهر المختلفة المتعلقة بجميع العوامل التي تدخل في الترجمة والمتمثلة في الشخص المترجم واللغة الأولى واللغة الثانية والنص موضوع الترجمة وغير ذلك، وذلك بغية تحقيق الغايات التي سطرها هذا العلم وهي حل المشاكل الترجمية بكل أصنافها ومحتوياتها سواء في الميدان العملي أو الميدان التعليمي.

كان أول من اهتم بتحديد مجال علم الترجمة جيمس هولمز الذي مّيز بين علم الترجمة النظري الذي يشتغل بوصف ظواهر الترجمة وعلم الترجمة التطبيقي والذي يهتم بتطبيق المبادئ والنظريات في مجال تكوين المترجمين وتطوير أدوات تحسين مهنة الترجمة وفي مجال النقد الترجمي. وقد شدد هولمز على نقطة مهمة وهي وجوب انصباب اهتمام هذا العلم على الترجمة بحد ذاتها سواء كانت عملية فكرية ذات مبادئ تصوغ من خلالها مراحلها المختلفة أو منتوجا نهائيا أي نصا مترجما في لغة أخرى ولا ينبغي أن يكون موضوع الدراسة غير ذلك كاللغة مثلا أو علم النفس أو علم الاجتماع حتى وإن كانت هذه الجوانب تكتسي من الأهمية ما تكتسيه في الترجمة.

لماذا صعب تحديد حقل علم الترجمة؟

تطبع علم الترجمة سمة التعددية لأنه يبحث في نشاط يستمد وجوده من علوم كثيرة، كما يتسم هذا العلم بسمة التجريبية لكون الترجمة قد مورست لحقب طويلة ومنذ وقت بعيد، غير أن التنظير لهذه الممارسة ليس بعيدا، لهذا فإن العلم المهتم بها قائم على التجريب، أي: الممارسة الترجمية وملاحظة ما يحدث خلال الترجمة.

إن وجود علم الترجمة يسبق ماهيته، لأنه لم يعرف علما قائما بذاته ولم تتضح معالمه إلا بعد وقت طويل من ظهور مبادئه ومواضيع الدراسة فيه، حيث أن علوما أخرى كانت تشاركه موضوع دراسته بما أن الترجمة كانت تدرس من زوايا مختلفة، دون أن تعمد أية دراسة إلى التعمق

في مشاكلها وظواهرها، مما جعلها تتطور وتصنع لنفسها علما متشعبا ومرتبطا بباقي العلوم من حيث الاصطلاحات والمنهجية ومستقلا من حيث الأبعاد والغايات. ويشكل هذا العلم في الوقت الراهن مجالا فسيحا تبحث فيه المسائل والمفاهيم المتعلقة بالترجمة وكونه يقترض بعض المصطلحات والمناهج من باقي العلوم بحكم تعدد الجوانب الداخلة في الترجمة، فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون علما قائما بذاته وموضوعه وأهدافه.

مع ذلك، كان هناك من العلماء من انتقد وجوده ونفى مردوديته، مثل (بيرنييه) الذي يقول مخاطبا من أسّس لهذا العلم:

« Ceux qui prétendent fonder une science de la traduction ne font rien d'autre la plupart du temps que d'étudier la traduction du point de vue d'une science plus vaste et comme application de cette science ». (Pergnier, 1978 :05).

" إن من يزعم تأسيس علم للترجمة لم يؤسس في الغالب شيئا سوى مجرد دراسة داخلة في إطار علم أوسع تطبيقا له لا غير" ترجمتنا.

والعلم الذي قصده بيرنييه هو بطبيعة الحال علم اللغة، ويبرر وجهة نظره تلك بحقيقة عجز المنظرين عن تحديد حقل هذا العلم، حيث يستنتج قائلا:

« Aucune science de la traduction n'a à ce jour développé des méthodes et un objet spécifique ». (Pergnier, 1978 :05).

"لم تفلح أية نظرية ترجمية – حتى الآن – في تطوير مناهج محددة أو موضوع محدد". ترجمتنا.

إذا كان الأمر كذلك، فإن القارئ قد يتساءل عن قيمة أعمال السابقين من علماء اللغة والمترجمين أمثال (مونان) و(فييني وداربلني) و(كاتفورد) وغيرهم، فيجيب (بيرنييه) قائلا:

« Il sont en réalité bien plus des théories de la langue appliquées à la compréhension des difficultés inhérentes à tout acte de traduction que des prolégomènes à une science de traduction » .(Pergnier, 1978 :05).

"إنها في واقع الأمر نظريات تطبيقية لاستيعاب المشاكل المتعلقة بالترجمة أكثر منها مبادئ مؤسسة لعلم الترجمة". ترجمتنا.

من جهة أخرى، نجد من المنظرين من دافع عن علم الترجمة وبين أهميته وخصوصيته، أمثال (برمان) الذي عرفه في مقدمة كتابه ابتداء من تحديد طبيعة الترجمة و مجالها، و هو يقول في ذلك:

« La traduction n'est ni une sous-littérature (comme l'a cru le 18ème siècle) ni une sous-critique (comme l'a cru le 19ème siècle) elle n'est pas non plus une linguistique ou une poétique appliquée (comme on le croit au 20ème siècle). La traduction est sujet et objet d'un savoir propre (……) la traductologie : la réflexion de la traduction sur elle-même à partir de sa nature d'expérience ». (Berman, 1999 :16-17).

"ليست الترجمة بفرع من فروع الآداب كما اعتقد في القرن الثامن عشر ولا بفرع للدراسات النقدية كما اعتقد في القرن التاسع عشر ولا هي بعلم من علوم اللغة و لا نظرية شعرية تطبيقية كما يعتقد في القرن العشرين. الترجمة هي معرفة مميزة بذاتها وموضوعها (.....) علم الترجمة هو: تأمل الترجمة في ذاتها انطلاقا من تجربتها". ترجمتنا.

ويجدر التنبيه إلى أن برمان، وهو يسير على خطى التفكير الفلسفي الحديث الذي يقوده (كانت) و(هيقل) و(هايديقر) ، يتبنى مصطلحية مختلفة عن مصطلحية علم اللغة، أي انه يفضل مصطلحي التفكير والتجربة على مصطلحي النظرية والتطبيق، وذلك على أساس فكرة يؤمن بها وهي أن الترجمة يمكن أن تستغني عن النظرية لكن لا عن التفكير، وفي ذلك يقول:

« La traduction peut fort bien se passer de la théorie non de pensée. Et cette pensée s'effectue toujours dans un horizon philosophique ». (Berman, 1999 :17).

"يمكن للترجمة الاستغناء عن النظرية ولكن لا يمكنها الاستغناء عن التفكير. وهذا التفكير يحدث دائما في حدود الفلسفة". ترجمتنا.

بهذا يكون علم الترجمة، حسب برمان تفكيرا وتجربة، لا تمرينا موضوعيا. ويمكن،بل وينبغي لهذا التفكير وهذه التجربة أن يلجا حقولا أخرى غير تلك التي ولجتها وتوقفت عندها التجارب الفكرية اللغوية السائدة، وهي ممثلة في اتجاهين غالبين هما أولا :التفكير الأبدي أو الدائم في ترجمة النصوص المقدسة، ثانيا: التفكير القائم على التحليل النفساني، خاصة في فرنسا، مع أن التفكير الأول لا يثمر إلا في حقل الترجمة الشعرية، والتفكير الثاني يتحدد بمحدودية تجريبه على الترجمة. ويبقى علم الترجمة يبحث عن حدود أوسع من تلك ويسعى إلى احتضان جميع حقول الترجمة، من قانونية وتقنية وعلمية وكذلك ترجمة أدب الأطفال.

عودة إلى جذور بعض المسائل التي مهدت لظهور علم الترجمة:

لقد بدأ التفكير التجريبي في الترجمة ينمو منذ القرن السادس عشر، حيث رافقت الممارسةَ الترجمية أسئلة نظرية متقابلة ومتناقضة أحيانا غذّت هذا التفكير ودعمته ليتطور إلى نظريات شكلت علم الترجمة الحديث. وكانت أهم تلك المسائل: مسألة قابلية الترجمة (traduisibilité).

مسألة إمكانية الترجمة من استحالتها:

كيف نتساءل عن إمكانية شيء ونطرحها للنقاش، ونحن بصدد دراسة العلم الذي احتضنه وحمل اسمه؟

القضية بسيطة، وتُفهم بالعودة إلى ما كان يعرف من أساليب نقل من لغة إلى أخرى قبل أن تعرف الترجمة بمفهومها المحدد والتي ارتاب علماء لغة وفلاسفة كثيرون في إمكانيتها تبعا لمدى مقبولية مبدأ " تكافؤ اللغات في التعبير عن الفكر الإنساني المشترك".

قبل الترجمة، كان هناك النسخ والتعليق. فالنسخ لا يقترح سوى نقل حرفي منمق بأساليب اللغة الأصلية. والتعليق، عكس ذلك، يضيف إلى المضمون الأصلي أفكارا توضّحه دون أن تنتمي إليه.

وإذا كان تعليم اللغات الأجنبية يتقبل الاعتماد على هذين النوعين من النقل، فإن الترجمة ـ ببعدها المهني ـ ينبغي أن تكون بمثابة تقديم المكافئ المحدد باللغة الهدف، وفي ذلك يقول دومارسي (فيلسوف وعالم نحو فرنسي، ولد عام 1676 وتوفي عام 1756):

« Le traducteur doit parler sa propre langue et non celle de son auteur, parce qu'il ne parle qu'à des personnes de sa nation. Ainsi, il doit rendre les expressions particulières de l'original par d'autres expressions particulières de sa propre langue ;en un mot, il doit parler comme l'auteur aurait parlé s'il avait écrit en la langue du traducteur ». (Dumarsais, 1722 :112).

"ينبغي على المترجم التعبير بلغته لا بلغة كاتب النص الأصلي لأنه يتوجه بترجمته إلى أشخاص ينتمون إلى أمّته. لهذا، لا بد عليه أن يقابل التعابير الخاصة بالنص الأصلي بتعابير خاصة أخرى من لغته هو باختصار، ينبغي عليه أن يتحدث كما كان الكاتب الأصلي ليفعل لو كتب بلغة المترجم". ترجمتنا.

كما نرى، فإن (دومارسي) ينطلق في رأيه هذا من مبدأ تكافؤ اللغات في التعبير عن الفكر الإنساني المشترك،و كذلك اعتقد أتباعه من بعده.

لكن ابتداء من القرن الثامن عشر ظهر تيار منتقد لهذه النظرية، وظهرت إشكالية التمايز اللغوي، فانتقلت القضية من مبدأ التكافؤ اللغوي إلى مبدأ التمايز اللغوي الذي ظل يلجم الإبداع الترجمي في أوروبا عامة وفرنسا خاصة، حيث قُنّن المترجمون بمعايير صارمة لا ينبغي محالفتها، تلخصت في مبدأ التطويع (التطويع هنا ترجمة لمصطلح naturalisme الذي ساد الممارسة الترجمية في أوروبا) والذي نادى به تيار يؤمن بفكرة التمايز اللغوي المبني على مدى تطابق تسلسل الكلمات في الجملة مع تسلسل الأفكار. هناك إذن أفضلية لغة على أخرى، ولا تتساوى كل اللغات في التعبير عن الفكرة الواحدة، فهناك لغات تعبّر عنها أفضل من الأخرى من حيث الأسلوب والتعابير، وعلى هذا الأساس خضعت الترجمة للمبدأ المذكور.

ولقد مثّل دانييل مارسيي لهذا الواقع بفرنسا حيث كان فلاسفة و علماء لغة كثيرين يؤمنون بأفضلية اللغة الفرنسية على نظيراتها الأوروبية، وكانت نظرتهم سائدة طوال الحقبة الكلاسيكية. وقد قال في ذلك:

« Pourquoi un traducteur sacrifierait-il l'élégance et la clarté française au respect littéral du désordre de la phrase antique, de l'obscure concision du style anglais, de la prétentieuse emphase hispanique ou encore de l'artificieuse ornementation de la langue italienne ». (Mercier, 1995 :166).

"ليس على المترجم أن يضحي بأناقة الفرنسية ووضوحها في سبيل النقل الحرفي للترتيب المختل في جملة اللغة القديمة والاقتضاب الغامض لأسلوب الانجليزية والمغالاة المتكلفة للإسبانية وكذلك التنميق المصطنع للإيطالية". ترجمتنا.

ولقد طرحت مسألة إمكانية الترجمة كذلك بالنسبة إلى نقل النصوص الدينية، وبرز في دلك اتجاهين متناقضين عبّرا عن ردود أفعال الفلاسفة وعلماء اللغة تجاه الترجمات التي أنجزت للكتب الدينية عامة وللكتاب المقدس خاصة. ففيما اعتبرها البعض وسيلة لاكتشاف أسرار الخطاب الديني، رأى فيها البعض الآخر تدنيسا وخرقا لحرمة الخطاب الإلهي لأنها تحط من قيمته لا أكثر.

رغم هذا التنافر في وجهات النظر، تعتبر الترجمات الدينية من أهم أنواع الترجمات التي عرفها التاريخ، و تكمن أهميتها في ميزات عدة اختصرها (نايدا) فيما يلي:

«Aucun autre type de traduction ne possède une aussi longue histoire, aucun n'implique autant de langues différentes (……..) Aucun n'englobe des textes aussi divers, ni ne couvre des aires culturels aussi distinctes ». (Nida, 1964 :09).

" لا يملك أي نوع آخر من الترجمة ما تملكه الترجمة الدينية من تاريخ عريق ولا يضم أي منها ما تضمه هي من لغات مختلفة ولا يحوي

أي منها ما تحويه هي من نصوص متنوعة ولا تغطي أية منها ما تغطيه هي من نطاقات ثقافية متباينة".ترجمتنا.

ولقد كانت إشكالية الترجمة الدينية تمهيدا لظهور إشكالية الاعتراض المُسبق (l'objection préjudicielle) التي تحدّث عنها مونان.

لم تكن تلك سوى بعض المسائل والأقوال التي وردت عن أصول الدراسة النظرية للترجمة والتي أصبحت فيما بعد مبادئ وأسسا بنى عليها منظرون في اللغة والترجمة آراءهم في القضايا الحالية للترجمة وتطلعاتهم في مجال تطبيقها لحل المشاكل التطبيقية التي تواجهها خاصة في مجال الترجمة الأدبية الذي لا يزال يحظى بالكثير من الاهتمام والممارسة.

المراجع:

1. Berman, Antoine. L*a Traduction et la Lettre ou l'Auberge du Lointain*, éditions le seuil, 1999
2. Du Marsais, Chesneau, Exposition d'une méthode raisonnée pour apprendre la langue latine. Paris, 1722
3. Guidère Mathieu, *Introduction à la traductologie : Penserla traduction hier, aujourd'hui, demain*. Editions de Boeck. Coll. « traducto ». 2008 .
4. Mercier, Daniel .*L'Epreuve de la représentation*. Annales Littéraires de l'Université de Besaançon, n°589. Paris, 1995.
5. Nida, Eugène. *Toward a Science of Translation*, Leiden : Brill, 1964.
6. Pergnier, Maurice, Les fondements sociolinguistiques de la traduction, Lille : Presse Universitaire de Lille. 1978.